فلسفة العلوم بالمغرب

د . سالـــم يفـــــوت

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط

مقدمـــة :

ظهر البحث في فلسفة العلوم بالمغرب ، في حمأة رغبة قوية ولـــــدت مـــع الفكر الفلسفي بالمغرب وحددت مساره منذ ما ينيف على نصف القـــــرن ، أنـــها الرغبة في الإفلات من قبضة المثالية بشتى ألوانها وتلوناتها .

بـــأي معنـــى ؟

لعل هذا الجموح إلى الإفلات من المثالية سمة عامة طبعت الفلسفة في القرن العشرين بدليل قول فوكو في نظام الخطاب : " عصرنا كله حاول بكل الوســائل أن يفلت من قبضة هيغل سواء عن طريق المنطـــق أو عـــن طريق الابستمولوجيا أو عن طريق ماركس أو عن طريق نيتشـــه .. " [1] . لكنه ، بالنسبة للعالم العربـــي ، كان أقوى في المغرب لأسباب لا داعي للخوض فيها هنا [2] .

---

(١) M. Foucoult, L ordre du discours, Paris, 1971, p. 74 -75 .

(٢) انظر : سالم يفوت ، عن قضاء الفكر الفلسفي بالمغرب ، مجلـــة الآداب ، فـــبراير ١٩٩٥ .

في ميلاد فلسفة العلوم بالمغرب وعوائقها :

إن اكتشاف الأبستمولوجيا بالمغرب تم في أوائل السبعينات ، منذ ربع قرن بالضبط ، وكان ذلك في حمأة انشغال ، أو على الأصح ، اكتشاف سابق، كتبت له السيادة حينا من الزمن ، فاستبد بالعقول : إنه اكتشاف الماركسية وما تضمنته من اعتقاد راسخ بأنها **علم العلوم** ، أو على الأقل ، أنها تظهر عن موافقتها للعلوم ، كما أن أسس هذه الأخيرة ترتد بصورة أو بأخرى إليها . وقد كرست الأدبيات الماركسية الفرنسية خصوصا مع التوسير وجماعته ، أو السوفياتية [١] هذا الاعتقاد. فمع هؤلاء الأخيرين ، على الخصوص المهتمين منهم بقضايا المنطق والمعرفة العلمية ، تبدو الماركسية كأنها تحمل نظرية المعرفة العلمية والفلسفة العلمية الحقيقية . ومما زكى هذا الزعم إطراء بعض رؤوس الابستمولوجيا ، في المغرب ، لها . فما كتبه جان بياجى عن الابستمولوجيا التكوينية ، لا يخلو من إشارة إلى موافقة ما جاء فيها لنتائج واستنتاجات أبحاث كيد روف على الخصوص . [٢]

ولعل الاكتشاف الذي كان له فضل الإيقاظ من هذا السبات الاعتقادي وخلخلته ، هو الاكتشاف العقلاني ممثلا في نصوص روبير بلانشي [٣] خاصة . ذلك أن قراءتها نبهت العديدين ، وأنا منهم ، إلى أهمية بشلار . ثم تم انتباه إلى قراءة أخرى نبهت إلى أهمية الدرس الإبستمولوجي البشلاري . إنها قراءة التوسير لماركس التي طرحت أبرز المفاهيم المكونة للإشكالية التجريبانية أو الإختبارية للنقد والمراجعة من خلال التأكيد على استقلالية موضوع المعرفة ، خلافا للأدبيات الماركسية المتداولة .

اجتذبت هذا اللون الجديد من الابستمولوجيا التي نعتها التوسير وتلامذته ، وعلى رأسهم دومينك لوكور ، بالابستمولوجيا التاريخية بإغرائه عقول العديد من

---

(١) انظر على سبيل المثال أعمال كيدروف ، كوبنين وفطاليف .

(٢) J. Piaget, Logique et connaissance scientifique, Paris, 1967, p. 106,166.

(٣) - R. Blanche, La science actuelle et le rationalism, Paris, 1969.

- R. Blanche, La methode experimentale et la philosophie la physique, Paris, 1969.

- L. Althusser, pour Marx, Pari, 1965 .

المتفلسفة المغاربة ، والعديد من الأبحاث الإبستمولوجية إن لم نقل أغلبها . إن الجزء الأعظم من المقالات التي كانت قد نشرت بمجلة **أقلام** المغربية ، انبثق من التحريض الذي مارسه هذا اللون والإشكالات المترتبة عنه كعلاقة العلم بالأيديولوجيا ، وعلاقة العلم بالفلسفة ، ومفهوم الممارسة ، ومفهوم البنية ، والبنيوية عند ليفي شتراوس .

إلى هذا تعود الازدواجية التي ظلت تعاني منها تلك الأبحاث وسائر الأبحاث الإبستمولوجية المنشورة حتى بداية الثمانينات . وهي ازدواجية أصلية حددت مسار البحث الإبتسمولوجي فى تلك المرحلة ، وتتمثل في قبول العقلانية المعاصرة واعتمادها مرجعية وسندا في مقارعة المواقف الإبستمولوجية الأخرى ، وعلى رأسها الموقف الوضعاني المحدث ، والرغبة في ملء " فجواتها " استنادا إلى إبراز تناقضاتها الداخلية على نحو ما فعل لوكور حينما نبه إلى أن الموقف الفلسفي والأبستمولوجي العقلاني يعد دون أن يفي بوعده ، ويرشد إلى الطريق الذي ينبغي المضي فيه لبناء الموقف الإبستمولوجي دون أن يمضي فيه حتى النهاية [1] .

تبلور إذن تعامل وظيفي وغرضي ايديولوجي مع الإبستمولوجيا . وقد اتخذ منحى آخر تجلى في الكيفية التي جمع بها الأستاذ الجابري بين اهتمامه الأصلي بالفلسفة الإسلامية وانشغاله ، في وقت من الأوقات ، بفلسفة العلوم : وهي كيفية تقوم أساسا على اعتبار هذه الأخيرة تمدنا بمفاهيم وأدوات إجرائية تساعد على قراءة التراث قراءة معاصرة واستثمار عناصره الإيجابية في تطلعاتنا الراهنة . من هنا انسياقه وراء فتنة مفهوم بشلاري وهو مفهوم القطيعة ، وتوظيفه لأداء وظائف كان يؤديها الفهم الماركسي لتاريخ الفلسفة من حيث هي صراع بين المادية والمثالية ، ليتحول ذلك الصراع إلى صراع بين المعقول واللامعقول في الفكر الفلسفي العربي الإسلامي .

لم تحضر الإبستمولوجيا إذن في هذا المشروع التوظيفي الغرضي لها . فقد

---

(١) ينطبق هذا الكلام على :

- سالم يفوت : فلسفة العلم المعاصرة ومفهومها بالواقع ، بيروت ، ١٩٨٦ .
- سالم يفوت : فلسفة العلم والعقلانية المعاصرة ، بيروت ، ١٩٨٢ .
- محمد عابد الجابري : مدخل إلى فلسفة العلوم ، جـ ٢ الدار البيضاء ، ١٩٧٦

استلهمت دون إلتزام بها بقضها وقضيضها ذلك أن الموضوع المتناول ، كان يطرح حدودا لها ، فضلا عن " اللغة الأيديولوجية التي رافقت البحث الإبستمولوجي بالمغرب منذ نعومة أظفاره ، مع وجود بعض الاستثناءات القليلة جدا ، التي تضاءل فيها – إلى حد ما – التوظيف الغرضي دون أن يفارقها كلية [١] .

شكلت الإزدواجية والتوظيف الغرضي للإبستمولولجيا أول عائق حقيقي .

ولئن كانت بعض المؤلفات الإبستمولوجية المغربية المعدودة على الأصابع أقل رزوحا تحت نير الأيديولوجيا وأقل إصابة بلعنتها ، على ما يبدو ، فإنها لم تفلت ، مع ذلك ، من لعنة أخرى تتمثل في وهم بناء " البديل الابستمولوجي "، وهو وهم ظل يتردد ، خفيفة أو علنا ، في العديد من الكتابات الابستمولوجية ، إما بين السطور أو فوقها [٢] .

والحقيقة أن العائق الثاني الذي حال دون تقدم البحث الابستمولوجي بالمغرب ، كان هو الميل إلى إحالة الابستمولوجيا إلى رؤية شاملة للعلم أو إلى نسق كلي ، أو باختصار ، إلى ابسمتولوجية العلم هكذا بدون تخصيص ، والحال إن كل ابستمولوجيا هى ابستمولوجيا قطاعية تتلون بتلون المعارف العلمية ولا تركن إلى العموميات ، بل تلاحق ، وبدقة ، توالد التصورات العلمية داخل علم بعينه وضمن ممارسة نظرية علمية بعينها ، أي دونما ازدراء للتاريخ الفعلي لكل ممارسة نظرية علمية على حدة .

كان هناك عائق ثالث تمثل في انحصار أفق البحث الابستمولوجي لدينا فيما تطرحه الابستمولوجيا الفرنسية من قضايا .

في ميلادها الثاني :

أبرزنا عوائق اعتبرناها مسؤولة ، إلى حد ما ، لما أمكن نعته بانحصار رافق البحث في فلسفة العلوم بالمغرب ، غير أن الوعي بها شكل حافزا حقيقيا

---

(١) انظر ، محمد وقيدي : فلسفة المرفة عند غاستون باشلار ، بيروت ، ١٩٨٠ .
(٢) انظر مثلا ، محمد وقيدي : حوار فلسفي ، الدار البيضاء ، ١٩٨٥ ، ص ١٧٣ .

ودافعا قويا نحو تجاوزها في اتجاه انشغال ابستمولوجي أكثر رصانة ورسوخا ، يزاوج بين الاهتمام بالقضايا الابستمولوجية النظرية والبحث في تاريخ العلم ، والعلم العربي ، على الخصوص .

وقد تكون لهذا الغرض ، في سنة ١٩٩٤ ، فريق بحث يضم مختلف المشتغلين بفلسفة العلوم وتاريخ العلوم في جامعة محمد الخامس بالرباط والجامعات المغربية الأخرى ، وإن كان امتلاك زمام الأمور في هذه المبادرة هو للجامعة الأولى باعتبارها هي التي تحتضن الفريق وتقدم له بعض المساعدات وباعتبار نواته الصلبة توجد بها [١] .

ومن المهام التي سطرها الفريق لنفسه :

البحث في مسار المفاهيم العلمية خلال العصر الوسيط ، وذلك بهدف الكشف عن سبل انتقال المفاهيم في العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية وتلاحقها وتداولها .

إنجاز دراسات شاملة قطاعية حول نشأة العلوم بالمغرب تطورها وعوامل انحسارها ، مع ما يتطلبه ذلك من رجوع إلى المخطوطات ونفض غبار النسيان عنها والعمل على تحقيقها كمرحلة لا بد منها من أجل التصدي لدراسة تاريخ المعارف العلمية بالمغرب .

الانخراط في الدراسات المعاصرة في نظرية العلم والمساهمة في تطويرها وذلك من خلال صنع استراتيجية من شأنها أن تسمح للمشتغلين في ميدان تاريخ العلوم وفلسفة العلوم بالاستفادة من المناهج والنظريات المعاصرة المتداولة في مجال الدراسات الابستمولوجية الغربية . وهو أمر سيمكن من الانفتاح على تجارب الآخرين والاستفادة منها وربط علاقات التعاون بمراكز البحث الأجنبية المتخصصة قصد تبادل الخبرات والأفكار، تمنح للفريق حيوية ونشاطا متجددين بالإطلاع المستمر على الجديد في المجال .

---

(١) مقر الفريق هو شعبة الفلسفة كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة محمد الخامس ، الرباط .

واضح من هذه الأهداف أنها أعقل ، نسبيا وأكثر طموحا ورزانة ، وقد نجح الفريق ، فعلا ، في ربط علاقات تعاون متعددة الأطراف ، ونسج صلات علمية مع المشتغلين بتاريخ العلوم العربية – الإسلامية أمثال الباحث الجزائري المتخصص في تاريخ الرياضيات العربية الأستاذ / أحمد جبار بجامعة باريس ، والباحث المصري المتخصص في تاريخ الرياضيات العربية الأستاذ / رشدي راشد من المركز الوطني للبحث العلمي بباريس ، والباحث المصري الكبير المتخصص في فلسفة العلوم وتاريخها الأستاذ / عبد الحميد صبره من جامعة هارفارد ، وغيرهم من الباحثين المختلفي الجنسيات والتوجهات العلمية والآفاق البحثية .

من الأسئلة الابستمولوجية القلقة التي انشغل بها الفريق سؤال **التأريخ للعلم**. وفي هذا الإطار تم تنظيم ندوة بعنوان كيف يؤرخ للعلم ؟

إنه سؤال تم طرحه في سياق التوجه الابستمولوجي المعاصر لنظرية تاريخ العلوم . وهو توجه تحدوه الرغبة العارمة في تجاوز الإشكالية التقليدية . فتتبع التطور والنمو الفعليين للعلم أمر لا يمكن أن يتم دونما إعادة صياغة ذلك التطور والنمو قصد إبراز الإنشاء العسير المتعثر للمعرفة مع اعتبار الأخطار والتعثرات والفواجع جزءا من النمو الفعلي للعلم ، وبهذا يقلع التأريخ للعلم عن أن يكون مجرد حكايات وأحداث ، ليتحول إلى غير ذلك ، يغير من صورتنا للعلم مثلما يقدمها الخيال العلمي المبتذل وتكرسها الكتب الدراسية المتداولة .

لقد كان الهدف من سؤال الندوة اقتراح تصور مغاير لنمو العلم وتطوره ، مخالف لما هو شائع ، لا يعتبر الممارسة العلمية تجميعا للوقائع وتسجيلا للإكتشافات والنظريات والابتكارات المتراكمة .

صحيح أن الثورة المتعلقة بالمناهج التاريخية في مجال دراسة العلوم ما تزال في بدايتها إلا أن الأسئلة القلقة التي هي من نوع جديد والتي بدأ مؤرخو العلوم وفلاسفة العلوم يطرحونها أضحت أكثر إلحاحا وراهنية . ولعل السؤال الذي اتخذته الندوة عنوانا لها يحمل تلك الأسئلة القلقة وينطوي عليها . غير أن هدف الندوة لم يكن يقوم على حصر الاهتمام في الحدود النظرية للسؤال ، بل لمسه كذلك في جوانبه العملية بالتساؤل عما تم إنجازه بالفعل في مجال التأريخ للعلوم ،

خاصة العلوم الوسيطة في لحظتها اللاتينية أو لحظتها العربية الإسلامية . وفيها يتعلق بهذه اللحظة الأخيرة طمحت الندوة إلى تقديم حصيلة الدراسات التي كتبت حولها مع تقويمها تقويما نقديا ، وقد انصبت جل الأبحاث المقدمة للندوة على هذه اللحظة . فمنها ما اهتم بتقديم وتقويم للكيفية التي أرخ بها العرب ماضيهم العلمي ، أو اهتم بالكيفية التي نقرأ بها تاريخ المنطق عند العرب ، أو انشغل بتاريخ علم الفلك في الغرب الإسلامي ، أو بإشكالية كتابة تاريخ العلم الزراعي عند العرب [1] .

تم تنظيم ندوة أخرى سنة ١٩٩٦ في موضوع التفسير والتأويل في العلم [2]. وقد طرحت فيها الأسئلة المحورية المتفرعة عن هذه الأشكال .

كما انصب الاهتمام على التأويل الوضعاني المنطقي للتفسير العلمي والذي يسعى إلى رد كل تفسير علمي إلى بعده الاستنباطي بدعوى أنه لا داعي للبحث عن الأسباب والعوامل في التفسير العلمي ؛ وهو أمر اقتضى فحص هذه الدعوى بالتساؤل عما إذا كان بإمكان المنطق وحده أن يستنفذ كل المعارف العلمية ؟ فرد التفسير العلمي إلى الاستنباط فيه إهمال لعناصر التفسير الحقيقية ، وكل ما بستطاعة الإستنباط أن يفعله هو أن يبين أن هذا التفسير أو ذاك صحيح أو فاسد ؛ لكنه يظل عاجزا عن أن يبين أنه ماديا تفسير معقول أو مقبول .

انصبت الأبحاث المقدمة للندوة على مسائل التفسير في بعض فترات تاريخ العلم كالفترة النيوتونية ، وعلى الجوانب النظرية والإبستمولوجية لمسالة التفسير في ارتباطه بالتأويل ؛ هذا فضلا عن مكانة التفسير في الرياضيات العربية القديمة، خاصة بالمغرب ، وفي البيولوجيا التطورية لدى دارون .

فى مطلع ١٩٩٧ انعقدت الحلقة الأولى من ندوة حول العلم والفلسفة في العصور الوسطي أعقبتها الحلقة الثانية والأخيرة في السنة الموالية [1] . وقد تم فيها تناول هذا المحور من مختلف جوانبه مع التركيز أكثر على العلوم العربية

---

(١) انعقدت الندوة في ديسمبر ١٩٩٤ ، ونشرت الأعمال ضمن : كيف يؤرخ للعلم ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، ١٩٩٦ .

(٢) نشرت الأعمال بنفس العنوان ضمن نفس المنشورات ، سنة ١٩٩٧ .

الإسلامية .

في إبريل من سنة ١٩٩٨ نظمت المجموعة ندوة دولية في موضـــوع دور الخيال في المعرفة العلمية [٢] .

وقد شارك فيها ثلة من خيرة الباحثين من مختلف أقطار المعمورة ، فكـانت جسرا بين الإنشغال الإبستمولوجي بمعناه التقليدي المتداول وبين انشـغالات العلـم المعرفي ، هذا المبحث الجديد الذي لم يعد المشتغل بفلسفة العلوم في غنى عنـــه . وهو جسر توطدت ركائزه أكثر من خلال تنظيم الفريق لندوة فـــي مطلـع ســنة ١٩٩٩ في موضوع : آيات الاستدلال في العلم [٣] .

بموازاة مع هذا الانشغال تبلور منذ مطلع التسعينات انشغال آخر له صلـــة بالاهتمام بالتاريخ للعلوم بالمغرب وبالغرب الإسلامي عامة . وفي هـــذا الإطـار أنجزت دراستان ؛ أولهما بعنوان:مدخل إلى تاريخ الرياضيات بالمغرب العربـي [٤] بقلم الأستاذ / إدريس المرابط . أنها بحث فريد من نوعه وغـير مسـبوق ، هـذا فضلا عن أن مؤلفه دارس متخصص في مجال الرياضيات العربية ؛ أمـا الثانيـة فهي دراسة وتحقيق لكتاب العالم الرياضي الفلكي المغربي **ابن البنا المراكشـي ، رفع الحجاب عن وجود أعمال الحسـاب** [٥] ، أنجزهـا الأسـتاذ محمـد إبـلاغ المتخصص في رياضيات ابن البنا وتاريخ الرياضيات بالمغرب . كما أنجز سـالم يافوت دراسة في تاريخ علم الفلك بالغرب الإسلامي [٦] انصرف الاهتمام فيـها ، أساسا إلى موقف الأندلسيين من كتاب المجسطي وأفكار صاحبه .

---

(١) الأعمال قيد الطبع ، ستصدر ضمن نفس المنشورات قريبا .

(٢) قيد الطبع ، ستصدر ضمن نفس المنشورات قريبا .

(٣) قيد الطبع ، ستصدر ضمن نفس المنشورات قريبا .

(٤) إدريس المرابط : مدخل إلى تاريخ الرياضيات بالمغرب العربـي (بالفرنسـية) ، الرباط ١٩٩٤ .

(٥) محمد ابلاغ: رفع الحجاب عن وجوه أعمال الحساب لابن البنا المراكشـي،دراسـة وتحقيق ، فاس ، ١٩٩٤ .

(٦) سالم يافوت : نحن والعلم ، دراسات في تاريخ علم الفلك بالغرب افسلامي ، بيروت ١٩٩٤.

في نفس السياق نظمت المجموعة في مطلع سنة ٢٠٠٠ ندوة موضوعها :

العلم في المغرب [١] لوحظ أن جل أعمالها انصبت على الجوانب الرياضية والفلكية والبلاغية عن ابن البنا المراكشي ، وأحيانا على الموقف الفلكي الأندلسي ، خصوصا لدى ابن رشد .. وستتلوها في مطلع السنة القادمة ندوة أخرى موضوعها هو **عوامل انحسار العلم في المغرب** .

بجانب ذلك ، ظل الاهتمام بالقضايا الإبستمولوجية العامة قائما . وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى دراسة هامة تعتبر فتحا جديدا في تاريخ التفكير الإبستمولوجي بالمغرب أنجزها الأستاذ بناصر البعزاتي.

وهي بعنوان : **الاستدلال والبناء** [٢] . والموضوع المحوري لهذا الكتاب هو مسألة المعقولية العلمية . أبرز فيه المؤلف فشل التصورات المناصرة للمنطق الصوري في تفسير الممارسة العلمية ، وفشل الوضعانية المنطقية والتجريبية عامة دون أن يسقطه ذلك في قبول الأطروحات المتطرفة المعارضة كتلك التي قال بها **بول فيرابند** والمتسمة بالإغراق في النسبانية والعدمية ، وهما لا تسهمان الإبستملوجيا وتاريخ العلوم في شيء . فهذان الأخيران يعملان على إعادة بناء الممارسة العلمية من أجل فهم سبل الاشتغال في العلم .

كما أبرز فيه معقولية التصورات الواقعية من حيث أنها وإن كانت لا تفيد العلم كثيرا ، إلا أنها لا تعرقله . وما يفتأ المؤلف يؤكد أن التشبث بالواقعية والموضوعية لا ينبغي له أن يؤدي إلى اعتبار واقعية ظواهر العالم حقيقة قارة خارج كل تنظير لأن الواقعية مرتبطة بالتهيؤ المفهومي الذي يبلورها . إنه لا أمل في موضعية كاملة لأن كل قياس مشروط بنيويا ، وكل تجربة مشروطة مفهوميا .

وتستمد موضوعية العلم وواقعيته كيانها من متانة آليات البناء والاستدلال فيه . ويتم البناء في سياق تقليد علمي يعرف أنماط من الغنى والركود والجدال .

---

(١) ستصدر الأعمال بنفس العنوان ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط

(٢) بناصر البعزاتي : الاستدلال والبناء ، بحث في خصائص العقلية العلمية ، الربلط ، ١٩٩٩ .

يعتبر صدور هذا الكتاب حدثا بارزا في التاريخ الثقافي بالمغرب وفتحا جديدا في مجال الإبستمولوجيا ، ذلك أن مؤلفه مطلع على أبرز النصوص الإبستمولوجية في لغاتها الأصلية ، كما يتحلى بروح نقدية عالية جعلت مواقفه تتسم بالرزانة وعدم التسرع ، هذا فضلا عن الدقة في معالجة القضايا وحسن الدراية بلونيها وألوانها . وبنفس الروح تنجز حاليا أعمال أخرى حول الإبستمولوجيا التكوينية عند بياجي ، أو حول جوانب من فلسفة العلم عند نيوتن وغاليلي .

خاتمـــــة :

بدأ البحث في فلسفة العلوم بالمغرب في صورة أعمال ومجهودات فردية ، وكان ذلك في منتصف السبعينات ، لكن ومع مستهل التسعينات ورغبة منه في تجاوز العوائق التي كبلته ، عرف انطلاقة ثانية في صورة عمل جماعي يتولاه فريق من الباحثين المتعددي التخصصات والمختلفي التكوين فأضحى قريبا من العمل المؤسسي ، إلا أنه عمل مؤسسي تطوعي تعترضه صعوبات شبيهة بتلك التي تعترض كل عمل تطوعي ، والتي قد اتصل إلى حد أن تعصف به ، باعتباره يظل في غير مأمن من عاديات الزمن وتقلباته .

وكل ما نطمح إليه أن يتأسس في بلداننا معهد للبحث في تاريخ العلوم على غرار مما هو موجود في البلاد الأخرى . فمعهد ماكس بلانك لتاريخ العلوم ببرلين، مثلا ، يولي عناية كبرى للمخطوطات العلمية العربية دراسة وتحقيقا وترجمة ، ويستقطب لذلك الغرض باحثين مغاربة يستعين بهم ، مثلما يستعين بغيرهم .

أنه طموح مشروع لكنه يبدو بعيد المنال والتحقيق .